الفكر في الحضارة الهندية القديمة

الديانة البراهماتية (تابع)

ساد الفكر الفيدي عدة قرون ومع مرو الزمن ظهرت تأويلات وشروحات لكتاب الفيدا قام بها مجموعة من الكهنة وكنتيجة لذلك ظهرت ديانة جديدة تسمى "الديانة البراهماتية"، فالبراهماتية هي إذن هي في الأصل شروحات على الكتاب المقدس الفيدا تتعلق بالطقوس والقرابين وطرق تأديتها وقبلوها من طرف الإله براهمان. وبما أن هذه الشروحات قام بها الكهنة البراهماتيون فإنهم جعلوا هذه الديانة كلها تتمحور حولهم.

استحدث الشراح البراهماتيون العديد من التعاليم التي تجعل من الكهنة البراهماتيين أساس هذه الديانة وكلها كانت في خدمة مصالحهم. ومن الأمور التي استحدثوها على تعاليم وديانة الفيدا السابقة هي دعوة الشعب إلى تعظيمهم وتقديسهم، ونشروا فكرة أن الكهنة هم الوحيدين الذين يملكون التأثير على الآلهة. ومن هنا فإن اكرامهم وتبجيلهم من أعظم العبادات واهانتهم تعد من أبشع الآثام. ومع هذا التحول لم تعد العبادات توجه إلى الآلهة كما كان الأمر في الفيدا وإنما إلى البرهمانات.

في عصر الديانة البراهماتية وبالتحديد مع عصر كتابة الأثار فيدا، ظهرت الطبقية في المجتمع الهندي Castes ويمكن تمييز أربعة طبقات: البراهماتيون (الكهنة)، المحاربون أو الجند، والحرفيون المزارعون والطبقة الأخيرة تتمثل في الخدم والرقيق. وحول أصل هذه الطبقية هناك عدة روايات حولها فهناك من يعزيها إلى التعصب والتمييز العنصري بين الأريين وسكان الهند المحليين لأن الطبقات الثلاث الأولى كانت للآريين وأما الطبقة الرابعة وهي طبقة الخدم فكان يمثلها السكان الأصليون. هذا لأن الأريين حين قدموا إلى الهند احتقروا السكان المحليين وجعلوهم خدما وعبيدا لهم. أما البيروني فيذكر أسطورة حول أصل هذا التقسيم حيث ذهب إلى أن الطبقة الأولى خلقت من رأس الإله براهمان، أما طبقة الجند فقط خلقوا من منكبيه وذراعيه، وأما المزارعون والحرفيون فقد خلقوا من فخذيه، وأما العبيد والخدم فقد خلقوا من رجليه.

لقد كانت طبقة الكهنة البراهماتيون يتمتعون بكامل الحقوق من علم وثقافة وشرح وتأويل الفيدا، والقرابين وغيرها وكانوا يدعون أنهم يمتلكون قوى خارقة وأنهم بإمكانهم التأثير في قرارات الآلهة، أما الطبقات الأخرى فامتيازات بحسب درجتها وسلطتها.

كتب الديانة البراهمانية:

للديانة البراهماتية ثلاثة كتب مقدسة وهي:

1. البراهماناس: وهي أقدم الكتب وتمثل تفسيرا مفصلا لقسم الياجورفيدا من كتاب الفيدا.
2. الأرانياكاس: ويشمل مجموعة من التعاليم التي ينبغي على الكهنة اتباعها في سلك الكهنة والتنسك والاعتزال.
3. الأوبانيشاد: وهو أحدثها وأهمها يتناول مجموعة من الأفكار الفلسفية والفكرية. وقد كتب بين 800 ق م إلى 500 ق م.

أهم أفكار وعقائد الديانة البراهماتية:

لا يقدم لنا كتاب الأوبانيشاد أية رؤية فلسفية متكاملة ومتجانسة وإنما هي أفكار فلسفية متفرقة، وأهم هذه الأفكار نذكر أن العالم تسوده قوتان أو روحان هما: البراهمان وأتمان، فأما البراهمان فيعني ذلك الذي يضفي العظمة. والتعريف الذي يمكن أن يوصف به هو أن "ما ليس هذا ولا ذاك"، وهو غاية كل موجود، كما أن أصل الموجودات أو لنقل ماهية الموجودات ورحها، أما أتمان فيمثل الروح الجزئية للأفراد أي يمثل الماهية الشخصية للأفراد، في حين البراهمان يمثل الماهية الكلية.

لا يمكن تحديد ماهية البراهمان فهو مطلق، ولا يمكن وصفه فهو لا يملك صورة معينة، ولا يطرأ عليه التغير وليس لديه لون...إلخ إن البراهمان:" لا سبيل إلى رؤيته، أو الاحاطة به، لا نسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن، وبلا أيد وبلا أقدام، يتخلل كل شيء، وهو كلي الوجود، إنه الواحد الذي لا يتغير، الذي ينظر إليه الحكماء بأنه مصدرا للموجودات". أما الأتمان فهو يمثل "الذات المتحررة من الشر والمتحررة من الشيخوخة والمتحررة من الموت والمتحررة من الخوف والمتحررة من الجوع والظمأ، والتي تنشد الواقعي ويواكب الحق أفكارها، ينبغي أن يسعى إليها من يرغب في الفهم ومن يعثر على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم والرغبات".

والحقيقة التي ينشدها البراهماتيون في دياتهم هي تحقيق اتحاد الأتمان مع البراهمان بحيث يشكلان وجودا واحدا، أو لنقل تحقيق الاتحاد بين الروح الجزئية الفردية مع الروح الكلية.

أما العقيدة الثانية التي يؤمن بها البراهماتيون فتتمثل في التناسخ ويعني التوالد من جديد أو انتقال الروح إلى حياة أخرى حسب ما كانت عليه في السابق سواء كانت خيرة أو شريرة، وهذا الانتقال يكون حسب الأعمال التي جناها الإنسان في حياته. وسلسلة التوالد هي سلسلة أبدية تشتغل دون توقف، والانسان محكوم عليه بالتناسخ سواء أكان خيرا أو شريرا والفرق بينهما فقط هو الحياة التي ينتقل إليها إما سعيدة أو شقية. والتناسخ شيء حتمي على الإنسان فهو يخضع له دون ارادة أي مجبر على ذلك.

ولما كان قدر الإنسان هو التناسخ فإن الحل لا يكمن في فعل الخير واجتناب الشر لأن ذلك في كل الحالات يقود إلى التناسخ إما إلى درجة أعلى إذا كان خيرا وإما إلى درجة أدنى إذا كان شريرا. لهذا اعتبر البراهاتيون أن الخير والشر كلاهما لا يضعان حدا لعملية التناسخ ولما كان الأمر كذلك فإنهما في الأصل كلاهما شر لأن الفعل مهما كان خيرا أو شرا لا يحرر الإنسان من دورة التناسخ، ولا يحقق اتحاده الأتمان مع المطلق البراهمان، وبذلك فإن الفعل مهما كان نوعه يجبر الإنسان على العودة إلى الحياة بفعل التناسخ.

لهذا رأى البراهماتيون أن الخير ليس في الانتقال إلى الحياة السعيدة وإنما الخير هو التحرر من دورة التناسخ أصلا. والذي يحرر الإنسان من ذلك هو اعتزال الفعل سواء كان ذلك خيرا أو شرا. وطريق تحقيق ذلك هو المعرفة أي المعرفة التي تحقق الاتحاد الكلي مع البراهمان. أما الطريق الثاني فيكون من خلال انحصار الشخص على ذاته والاكتفاء بها. وهذا الانحصار الداخلي صعب جدا ويتطلب جهدا ومكابدة يتطلب على الشخص اعتزال الناس والحياة والاستسلام للتأمل العميق الذي يبلغ درجة الغيبوبة التي تحقق الفناء في البراهمان. ويمكن أن نقرأ في الأوبانيشاد بشأن عدم جدوى الأفعال، سواء أكانت خيرة أو شريرة، من أجل التحرر من دورة التناسخ ما يلي:" إن الخالد ليس لديه خوف مما ارتكبه من شر ولا أمل فيما فعله من خير. فلا الخير ولا الشر يتحكمان به وإنما هو الذي يسيطر عليهما كليهما. لا شيء مما فعله، لا شيء مما أهمل عمله، يمكن أن يكون له أهمية لديه".

التخلص من التناسخ بالمفهوم البراهماتي يعني انكار الحياة. فكرة التخلي عن الحياة هي فكرة جاءت نتيجة مجابهة الإنسان للعذاب والمعاناة في حياته. وهناك منظوران حول أصل هذه المعناة وكلاهما يقران أن أصلها هو الفارق الذي يكون بين ما يكونه الفرد وما يطمح أن يكونه، وبين ما يملكه وبين ما يرغب أن يملكه، فالفقير وهو يرغب في الثروة فإن رغبته هي سبب معاناته، ولولا وجود هذه الهوة بينهما لما كانت هناك معاناة. ولما كان الأمر كذلك فإن حل هذه المشكلة يكون من خلال تحقيق التطابق بين ما يملكه الإنسان وبين ما يرغب أن يملكه. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟ يكون ذلك إما من خلال السعي إلى تحقيق ما يرغبه الفرد فإذا كان فقيرا عليه أن يعسى إلى أن يصبح غنيا وهذا يسري على كل رغبات الإنسان، أما الطريق الثاني فيتمثل في التغلب على هذه الرغبة في حدا ذاتها بأن يلتزم بالقناعة والرضى.

والفلسفة البراهماتية تبنت الحل الثاني أي القضاء على الرغبة. لهذا كانت أفكارهم لكها تميل إلى تشديد الانضباط على الذات وقمع شهواتها كشرط للسعادة. لهذا فإن القضاء على الرغبة هو الطريق الأولي للقضاء على المعاناة، أو لنقل أن الطريقة الوحيدة للقضاء على المعاناة التي يحياها الإنسان والتي سببها الرغبة هي القضاء على الرغبة أصلا، أو لنقل الرغبة في عدم الرغبة في أي شيء. القضاء على الرغبة إذن هي طريق تحقيق الاتحاد بين الأتمان والبراهمان.

الثورة على البراهماتية:

لقد قام الكهنة البراهماتيون بتأويل الفيدا على طريقتهم وأفضوا عليها معتقداتهم الشخصية وجعلوها تتوافق مع توجهاتهم ومصالهم مما جعل الآخرين يعتبرون ذلك على أنه تحريف للفيدا الأصلية ومعتقداتها. لهذا ظهرت عدة مدارس تنتقد التوجه البراهماتي في تأويل الفيدا. ظهرت هذه الانتقادات في حوالي القرن 6 قبل الميلاد. ومن المداريس التي ظهرت من أنكرت أصلا فكرة الدين وو لم تعترف بما يسمى البرهماتية. أما المدرسة المادية فقط آمنت بالجانب المادي للإنسان ورفضت كل الأفكار الميتافزيقية والروحية الموجودة في الفيدا والبرهماتية، حيث اعتبرت أن أصل الإنسان المادة وحتى وإن وجدت روح فإن وجودها داخل مادة، ولا تؤمن بالحقائق إلا ما كان مصدره الحواس وأطلق على هذا التوجه: الماديون. كما رفضت أي قانون أخلاقي أو ديني، وبالمقابل لم تكن تعترف إلا بالمادة واللذة. وهذا الاعتراف باللذة لا يعني أنهم انساقوا وراء الملذات والشهوات وإنما حياتهم حافظت على الطابع الهندي العام القائم على الزهد وانكار الحياة، إلا أن زهدهم لم يكن يعتبرونه كما كان ينظر إليه الزهاد الهنديون على أنه أساس التحرر والخلاص وإنما مارسوا الزهد فقط حتى لا يكونوا عبيدا للشهوات.